الطلاق

لعل من أمتع المعضلات التى حاول العقل البشرى أن يعالجها أيام طغى المنطق الشكلى على غيره من ألوان الفكر هل وجدت البيضة أولا أم الدجاجة ! ! ولعل هذا العقل فى جهاده لمعرفة العلة الأولى قد تتبع حلقات الكائنات والموجودات واحدة فواحدة فوجد أنه ينتهى آخر الأمر من حيث بدأ .. فالدجاجة من البيضة ما فى ذلك شك .. والبيضة من الدجاجة ما فى ذلك شك .. ولكن أيهما أسبق فى الوجود ؟ ؟ وكذلك يعن لأصحاب علم الاجتماع أن يتساءلوا أحيانا أنشأت الأسرة من الزواج أم نشأ الزواج من الأسرة .. فنحن نلاحظ فى مجتمعنا الحاضر أنه ما من أسرة الا وكانت ثمرة لزواج ، وكذلك الحال فى سائر الاجتماعات البشرية التى عرفها التاريخ وإن كانت شريعة الزواج تتسع فى حقبة أو مجتمع فتحلل ما حرمته حقبة أخرى أو مجتمع آخر . . وأصحاب علم الانسان يؤكدون أن الأسرة قديمة قدم المجتمع البشرى بل هى أقدم منه بكثير . . فالببونات العليا ومنها القردة العظام تحيا حياة عائلية واضحة المعالم والمراسيم يقوم فيها الذكر مع أنثاه أو حريمه وأبنائه مقام الأب فى الأسرة الانسانية من التحذير والحماية والاعالة جميعا ..

ويكذب بعض علماء النفس ما ذاع أخيرا على يد تلاميذ فرويد والمسرفين فى تفسير مذهبه من أن الجماعة الانسانية قد مر عليها حين من الدهر كانت تعيش فيها عيش إباحة واختلاط لا تعرف المحارم . ذلك لأن الغيرة وهى أصل من أصول الأثرة والحيازة والملكية موجودة بين ذوات الأربع فى كثير من الحيوان وما يعنينا بطبيعة الحال أن نعرف هل قامت الأسرة فى تلك العصور السحيقة عن زواج له قواعد ورسوم أم لم تقم . . ولكن الذى يعنينا أن شعائر هذا الزواج وشرائعه متمكنة من النفس البشرية منذ عهد لا ندرك كنهه . . . وأنه قام لتنظيم هذه العلاقة التى تمس أصلا من أقوى الأصول فى الحياة وهو حفظ النوع البشرى فهو ينظم العلاقة بين شريكين كل منها قبل الآخر . وينظم هذه العلاقة قبل ما يصدر عنها من نسل ثم هو بعد هذا كله ينظمها قبل المجتمع . . . واذا كان الزواج ينظم الانتخاب الطبيعى بين الجنسين قدر الطاقة فان الطلاق جاء ليحل ارتباطا قام بلا انتخاب طبيعى لضرورة من الضرورات أو نزعة من النزعات ، وهذا هو الأصل الطبيعى فيه وإن رفضته بعض الجماعات أو خرجت به بعضها الآخر عن هدفه ومرماه ..

ولعل من الخير أن نتتبع صنيع الأمم والشعوب على اختلافها فى الطلاق وموقفها منه حتى تتبين الحكمة فيه فيقال إن الطلاق مجهول عند الصيادين المنحطين . . . والمزارعين البدائيين نادر الحدوث عند غيرهم . . فى حين تسرف بعض القبائل فيه حتى أصبح الزواج عندهم

قصير الأمد يطلق الرجل زوجته متى شاء ، وتطلق المرأة زوجها متى شاءت ...أما أسباب الطلاق فى تلك المجتمعات البدائيـة فأهمها الخيانة والعقم والهجر والعجز عن إعالة الزوجة والبنين .

ونحن نضرب صفحا عن غرائب السنن والعـادات كتطليق المرأة زوجها فى إفريقية الوسطى لإعراضه عن حياكة ملابسها !!! ...

أما الثقافات فالأمر عندهم أوضح .. فالقانون الصينى يبيح للرجل أن يطلق زوجته إذا لم تنجب ولدا و إذا لم تحترم أهل زوجها أو لحسدها وغيرتها أو لثرثرتها وحمقها .

وكان الساميون يبيحون الطلاق حتى جاء الإسلام فنظم الطلاق وجعله أبغض الحلال عند الله ...

أما الهندوس فالزواج عندهم فرض دينى لا سبيل الى الخلاص منه... فاذا أثمت الزوجة تلفظها طائفتها . وينبذها أهلها. ولكنها تظل مع ذلك فى منزل زوجها فى مرتبة الجوارى والخدم .

فاذا انتقلنا إلى الآريين وجدنا اليونان والرومان يقدسون الزواج ولكنهم ما إن تقـدموا فى مدارج الحضارة حتى شاع الطلاق بينهم وقد أنبأنا التـاريخ أن معظم النساء فى عهـد شيشرون قد طلقن... ومن الفكاهات المأثورة أنهن كن يؤرخن الحوادث بأزواجهن فيقوم العام الأول للزوج الثانى أو الثالث وهكذا ...

ويطلق الرجل التيوتونى امرأته لعقمها أو للاشتباه فى سلوكها ...

وأخذت الكنيسة المسيحية فى أوربا تقيد الزواج وتعتبره أصلا من أصول الدين ولكنها سمحت بالطلاق إذا لم يكن الزواج شرعيا فى مستهله فلما جاء عصر الاصلاح الدينى سمح بالطلاق وسمح للبرئ من الزوجين بالزواج مرة أخرى وأعطوا السلطة المدنيـة حق الحكم بالطلاق إذا رأت ما يدعو إليه ... ومن الكلم المأثور ما قاله "جفرمن" عما نتج عن تحريم الطلاق ...

« عاش آباؤنا أجيالا عدة تحت قانون زواجى لا مثيل له فى الشذوذ والضيق إذ أغلقت أبواب الخلاص من الزواج ولم يبق مفتوحا منها غير باب الموت حتى كثر التحايل وتعـدد الطلاق الصناعى فاذا جاء الإصلاح ألغى الزيجـات المؤسسة على الخديعة والغش والادعاء بحيث لا يستطيع الرجل التخلص من عقـد الزواج إذا أقسم أنه ابن عم زوجته البعيد أو أنه أحب أختها أيام الشباب أو كان مرافا لأحد أقاربها » وظهر فى انجلترا أيام القرن السابع عشر لون طريف من ألوان الطلاق هـو « الطلاق البرلمانى » الذى لم يكن يسمح به إلا لخيانة بعد دفع نفقة باهظة قد تبلغ آلاف الجنيهات .

أما فى العصر الحديث فقد كاد يقضى على الفكرة القائلة بجمود الزواج وعدم قابليته للحل على تفاوت بين السعة والضيق ، ذلك أن الثورة الفرنسية أسبغت فلسفتها على كل شىء فأباحت الطلاق فى فرنسا الكاثوليكية واعتبرته سمة من سمات الحرية الفردية فى حين تحرم كارولينا الطلاق مع أنها بروتستانتية المذهب ، بل إن أحد الكتاب المحدثين قد علق على اختلاف الولايات المتحدة الأمريكية فى أمر الطلاق بقوله : " إن الولايات المتحدة — غير متحدة فى أمر الطلاق " .

ومهما يكن من شىء فإن أسباب الطلاق كلها تنحصر فى الاضرار بالشريك بالخيانة والفسوق أو العجز عن تكاليف الزواج من العقم وعدم النفقة وما اليها .

ونحن إذا نظرنا إلى نسبة شيوع الطلاق موزعة على الأمم والشعوب وجدنا سويسرة أكثر اقبالا على الطلاق من سائر الدول الأوربية ... وهو فى الولايات المتحدة أكثر منه فى سويسرة ، بل أكثر منه فى الدول الأوربية مجتمعة ...

وكثيرا ما نقرأ فى الصحف الأمريكية أن إحدى السيدات طلبت الطلاق لأن زوجها لا يأخذها فى سيارته للنزهة أولا يعود إلى منزله قبل العاشرة وإذا عاد أمضى الوقت فى الثرثرة التى لا تفيد !!!!

ومن البديهيات عند أصحاب علم النفس الاجتماعى أن حوادث الطلاق تزداد مع حوادث الانتحار، وهذا يدل على أن المجتمع الذى يفشو فيه مجتمع متقلقل تضيق فيه الصدور وتتبلبل الأوضاع وما من شك فى أن الوقوف فى وجه تفشيه لا يكون إلا باصلاح الزواج نفسه بحيث يصبح وافيا بالغرض منه محققا للانتخاب الطبيعى ...

وأنا لا أوافق على الفكرة الشائعة التى تقول إن الطلاق عدو الزواج، فإذا سهل الحصول عليه كان ذلك سببا فى هدم الحياة العائلية ، وأرى أن الطلاق على العكس علاج ضرورى للزواج الشاذ ووقاية حتمية من النكبات التى تعصف بالأسرة ويضع حدا للاتحاد الذى يقدم عليه من لا يفهم معنى الزواج ...

عبد الحميد يونس

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية